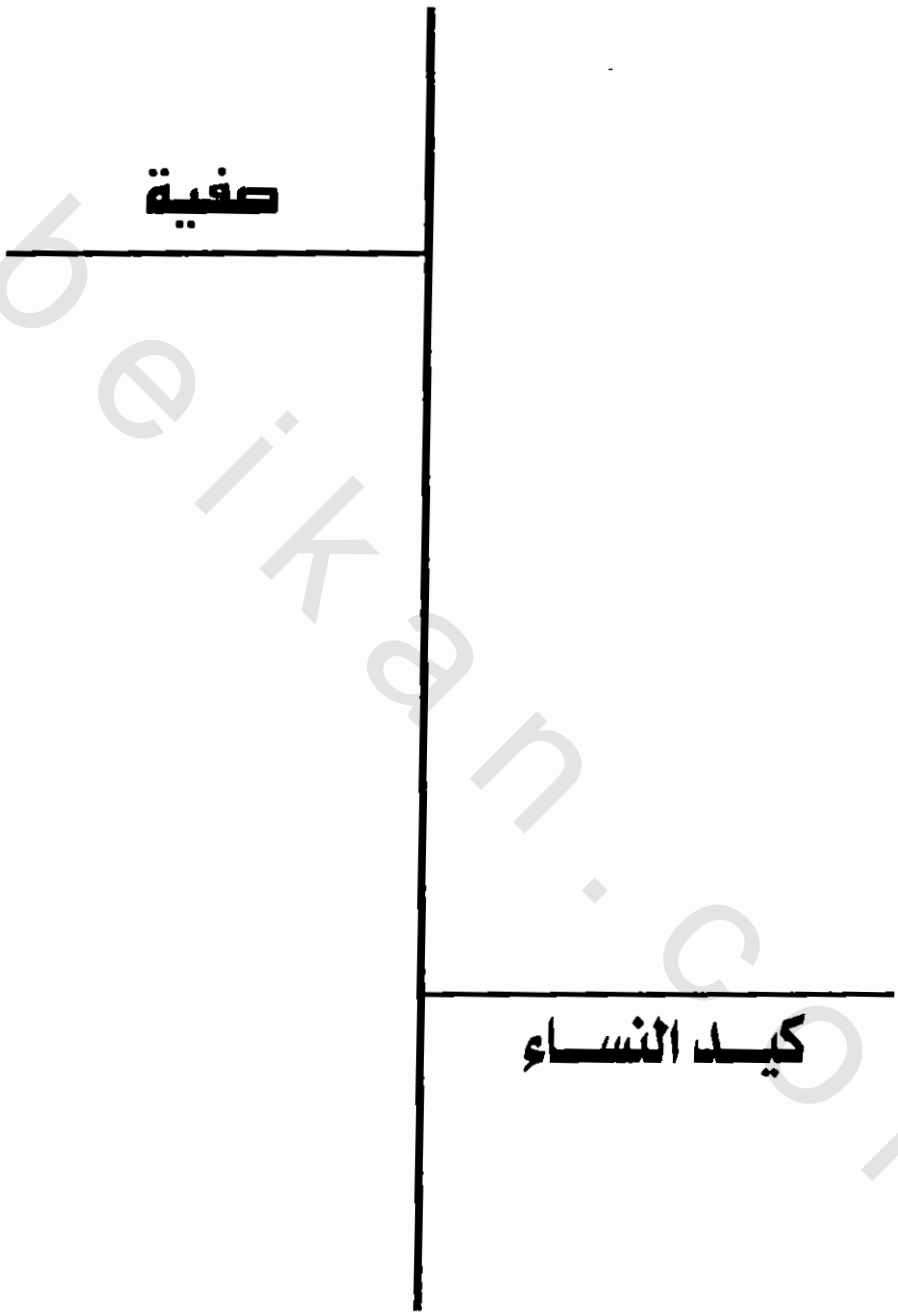

obeikan.com

obeikan.com

صفية

السفاحة البندقية

قاتلة السلاطين

كانت صفية فتاة بندقية خطفها القراصنة ثم باعوها لرجال السلطان مراد الثالث ، ورغم أنها لم تكن فائقة الجمال إلا أنها استطاعت بذكائها الحاد وخفة دمها التي منحتها جاذبية شديدة أن تنتقل من حريم السلطان إلى المرأة التي تأسر قلب السلطان ، وتجعله يتعلق بها ولا يطيق ابتعادها عنه لتصبح بعد أن أنجبت له ابنا أسماه (محمد فاتح القسطنطينية) الشخصية الثالثة في القصر السلطانى وتنال دون بقية الحريم لقب السلطانة ، وكانت الشخصية الثالثة بعد السلطانة "نور بانو" اليهودية الأصل وأخته "أسما سطان"

كانت صفية تخطط للمستقبل بدقة شديدة وتعرف ما ستفعله بالتحديد ، فمحطتها التالية ستكون بعد موت السلطان الذي ما لبث أن مات بعد عدة سنوات وكان عليها أن تنفذ خطتها ، فبينما انشغل الجميع بالسلطان الذي يحتضر وبتجهيز الجثمان للدفن ومراسم الجنازة وتسيير أمور البلاد من بعده كانت تأمر بعض مماليكها المقربين للخلاص من إخوته الثلاثة عشر غير الأشقاء ليسبقوا أباهم إلى الضريح ليلا ليس لحضور مراسم الدفن ، وتشييع الجثمان ، ولكن قتلى مخنوقين كعادة أهل البندقية في الخلاص من أعدائهم ، وبعد أن اطمأنت إلى سير الأمور كما تريد ذهبت إلى ابنها "محمد خان" مسرعة في هدوء شديد لتطلب منه سرعة الجلوس على كرسى العرش باعتباره السلطان الجديد وأن يتصرف بهدوء ؛ لأنه ليس هناك داع للقلق بعد أن أزاحت من طريقه إخوته الذين كانوا سيزاحمونه كرسى العرش وأن عليه أن يتقبل واجب العزاء في أبيه السلطان مراد ، وحين سأل عن أخوته أخبرته أنهم سبقوا

إلى الضريح لاستقبال والدهم السلطان السابق .

حين علم ابنها بحقيقة الأمر وأنها أمرت بخنق أخوته حتى الموت وهم نائمين في غرفهم ، أخبرته أنها فعلت ذلك من أجله لتزيحهم من طريقه ليخلو له كرسى السلطنة ولا ينازعه أحد ملك مصر ، ولما اعترض على فعلتها تلك أخبرته أن أباه قد فعل ذلك قبله هو وزوجته اليهودية حين قتلا أخوته الخمسة "محمد وسليمان ، ومصطفى ، وجهان خان ، وعبد الله" حتى يخلو له كرسى السلطنة أيضا بعد وفاة أبيه السلطان سليم الثانى سنة ١٥٧٤م .

كانت صفية هادئة وتتحدث بثبات مع ابنها وكان هو يعلم أن أمه تنتمى إلى عائلة "بافو" أحد دوقات البندقية الذين اشتهروا بخنق أعدائهم حتى الموت دون الاكتفاء بهم سجناء في زنازين القصر وإلقاء جثامينهم من فوق جسر التنهدات ليتخلصوا منهم نهائيا دون أن يعلم أحد شيئا عنهم ويبدون أنهم قد ماتوا غرقا ، وأصبح ما فعلته السلطانة صفية سنة متبعة في قصور السلاطين العثمانيين بعد ذلك ، واستطاعت بقوة شخصيتها ودهائها إسكات الأصوات التي تساءلت عمن يعتلى العرش بعد السلطان مراد ، وقبل أن يوارى الثرى جثمان السلطان كان قد انتشر في البلاد خبر لم يستطع معظم الناس تصديقه . . أن محمد خان ابن السلطان مراد هو السلطان الجديد باسم "محمد الثالث" أما أخوته فقد اختفوا بعد أن حاولوا قتل السلطان .

أدرك السلطان الجديد ما كان يقوله جده ولم يستطع فهمه آنذاك: "إذا أراد الله خراب مملكة سلط على ملوكها النساء"، لقد كان الجد حكيما وقد وقع في ذلك الخطأ وربما أراد أن يلقن الدرس لحفيده مبكرة لكنه وقع فيه أيضا وسلم نفسه لحريمه ومحظياته وجواريه ومن قبلهم أمه حتى أنه كان ألعوبة في أيديهم ، كانت صفية لا تزال تذكر بلدها البندقية وتعمل كل ما تستطيع في صالحها واستغلت تعلق ابنها السلطان

واستسلامه لها لخدمة وطنها وللخلاص والانتقام من أعدائها حتى أصبحت الكلمة الأولى في السلطنة لها .

عندما ثار جنود الإنكشارية مطالبين بدفع رواتبهم وأن يلغى قرار الصدر الأعظم بتخفيض قيمة الربع من رواتبهم أوفدت رسولا للقاء زعمائهم للتفاوض معهم وإبلاغهم بأن السلطان غير راض عن ما فعله وزيره وأنه يعدهم بصرف رواتبهم كاملة وإلغاء القرار وتأكيدا لذلك فإنه يدفع إليهم برأس ذلك الوزير الذي كانت هي تريد الخلاص منه ، وأمرت جنود الحراسة اقتياد الوزير إلى الإنكشارية الذين ذبحوه وهم يهللون "نصر الله السلطان".

استمرت السلطانة صفية مسيطرة على مقاليد السلطنة وعلى ابنها السلطان محمد الذي عاش ألعوبة لها حتى وفاته وأرادت أن تلعب نفس الدور مع حفيدها السلطان أحمد الذي تولى العرش بعد أبيه لكنه كان فطنا ورفض الانصياع لأهواء جدته ووضعها في قصر جميل على ضفاف البوسفور لتقضى فيه بقية حياتها .

* * *